الابعاد العقائدية والسياسية في الخطاب الوحدوي الاسلامي عند الشهيد" محمد باقر الصدر"

م.م. حيدر زاير العامري كلية العلوم السياسية - جامعة الكوفة

مقدمة :

عندما يتم طرح موضوع الوحدة الأسلامية والأهتمام بها من قبل كبار المفكرين الأسلاميين فأن ذلك يشير الى أهمية وخطورة الأنقسام الذي تعانيه الأمة الأسلامية على واقعها ومستقبلها من جانب , وكذلك الأعتراف بواقعية ذلك الأنقسام كحقيقة وكمشكلة تأريخية من جانب آخر.

ولكن في نفس الوقت لايعني أن ذلك الأنقسام حتمية تأريخية أبدية لايمكن السيطرة عليها والتخفيف من حدتها على أقل التقادير,كما لايعني أن ذلك الأنقسام أسبابه ذاتية داخلية فقط وليس للقوى الخارجية أي دور في أذكائه.

وهنا لابد من الأشارة الى آراء بعض المفكرين من الأسلاميين وغيرهم وكذلك من المفكرين العرب وغيرهم الذين تناولوا قضية الخلافات أو الصراعات التأريخية بين المسلمين ما بين الأفراط والتفريط, فالبعض ذهب بعيداً مبينا بأن أسباب الأنقسام تعود لعوامل خارجية وليست داخلية ذاتية وفق الأستغراق في مفهوم (نظرية المؤامرة).

وعلى العكس من ذلك ذهب البعض الى القول بتبرأة العامل الخارجي من تلك الأنقسامات والتأكيد على أن سبب ماتعانيه الأمة الأسلامية هو داخلي ,حيث يقول في هذا الصدد المفكر العربي (جورج طرابيشي) (..... خلافا لأدبيات المؤامرة الخارجية التي تؤلف ثابتا *بارزا من ثوابت الأيديولوجيا العربية المعاصرة ,فأن حوليات أبن الأثير تقدم لنا* دليل العكس على كون الفتن الداخلية ليست من صنع الأجنبي ولا من توظيفه بل هي التي توظف العامل الخارجي .....)*,والرأي الأصوب على الأرجح أن سبب الفرقة والتشتت في الأمة له أسبابه الداخلية ,وكذلك ساعد العامل الخارجي على أذكاه والأفادة منه لتحقيق أهدافه لاسيما في التأريخ

المعاصر, ولايخفى ان الشهيد السيد *محمد باقر الصدر*[1] قد أولى في حياته أهتماماً كثيراً لكل ماتعلق بهموم الامة الاسلامية وآمالها وآلامها , وقد بدا ذلك واضحاً من خلال نتاجاته الفكرية التي تناولت جوانب كثيرة ومهمة في حياة الامة الاسلامية سواءً فيما يخص تأريخها السالف او واقعها و مستقبلها .

وقد كان لرؤيته العميقة, وأسلوبه العلمي الذي تميّز به الاثر الواضح في نتاجه المتعدد ,ولاسيما في مجال التنقيح والتصحيح لكل ماتناوله من موضوعات حول التراث الاسلامي الذي تركه السلف , من روايات وتفسير وأحايث و ماتناقله الرواة والعلماء واصحاب الفكر,ورؤيتهم وفهمهم لتلك النصوص – إذ أنّ هناك فرقاً بين النص الاسلامي – سواءً القرآن او السنة النبوية وأحاديث المعصومين – وبين فهم اولئك الرواة لتلك النصوص , فالنصوص الاسلامية سواءً القران الكريم او السنة الصحيحة السند هي نصوص واحدة ومقدسة , ولكن هناك فهم متعدد لتلك النصوص ,وهذا التعدد في الفهم قد أفرز آراء وأتجاهات فكرية متعددة,قادت على مر التأريخ الى أزمات حادة وعميقة في المجتمع الأسلامي.

وهنا تبرزالحاجة الى دورالمصلحين و اصحاب الفكر المهتمين بالدين الاسلامي في تصويب او تطوير او تغيير, او ربما تأكيد ماورد من آراء المفكرين الأسلاميين السابقين , وهذا هو روح الاجتهاد في الاسلام وفلسفته .

و قد كان الدور الذي أضطلع به السيد الصدر,هو مراجعة أو أعادة قراءة ذلك الموروث,دون الأخلال بثوابته من جانب,أو الأنسياق ورائه بدون تحقيق و تأمل من جانب آخر, أي بآلية متوازنة أو متناسقة بين مفهومي الأصالة والتجديد, ولم يقتصر دور الشهيد الصدر في ذلك – أي في رؤيته للتراث ومحاولة تنقيحه , وانما في مواجهة بعض التيارات الفكرية الحديثة والمعاصرة التي ارادت اثارة الشبهات وتوجيه التُهم للدين الاسلامي الحنيف ورسوله الكريم (ص) , ولاسيما من بعض التيارات الأسلامية التي حاولت –بقصد أو بدون قصد الأساءة الى الدين الأسلامي والرسول(ص) كالتقليل من شأنه أو وصفه بما لايليق به,وكذلك الرد على ماصدر من بعض المستشرقين الذين حاولوا عكس التجربة السيئة للكنيسة في العصور الوسطى في اوربا , على الدين الاسلامي , متجاهلين عن عمدٍ او دون عمد الخصوصية التي يتمتع بها الدين الاسلامي ,والقيم الاصيلة التي يدعوا اليها من تقديس العلم واحترام الانسان ومقارعة الظلم والأستبداد و ضرورة احترام العقل .

وقد كان للشهيد الصدر دوراً واضحاً في التأريخ المعاصر في تلك المجالات , وكان من أهمّها دوره في الدعوة الى وحدة الأمة وتعاونها وتماسكها ,لأن في ذلك –

بحسب رؤيته -يكون الطريق الأفضل لتقدمها وتطورها حتى تأخذ دورها اللائق بها وتتساوى أوتتنا فس مع بقية الأمم.

والتساؤل المطروح هنا في الدعوة الى الوحدة أو التقريب -أو المشروع الوحدوي عند السيد الصدر,هل هو عائم وشامل,أم هل له ضوابطه وأحكامه وأصوله.

ولذلك تم الأنطلاق من فرضية في البحث مفادها أن السيد الصدر في دعوته للوحدة كان قد أنطلق من محددين رئيسين وهما المحدد العقائدي وهو الأصل ,والمحدد الآخر وهو السياسي ,ومن خلالهما رَسَمَ أستراتيجية الدعوة الوحدة وحدد خطّها العام

المبحث الأول:- البعد العقائدي في خطاب الوحدة عند الشهيد الصدر:

قد تثار أشكالية حول أستخدام مصطلح الوحدة من قبل البعض والدعوة الى ضرورة أستبدالها بالمصطلح الأصح والأكثر واقعية ,ألا وهو مصطلح (**التقريب بين المذاهب الأسلامية**), وهو إشكال فكري فيه كثير من الصحة,ولكن تم أستخدام مصطلح الوحدة لسببين رئيسين: أولهما أن المصطلح شاع أستخدامه كثيرا في هذا المجال وبالتالي فهناك دافع قوي لأستخدامه ,والسبب الآخر هو أمكانية التعبير عن الوحدة في أطار التعددية- أي الوحدة الواحدة التي تضم الأجزاء - كالحال بوصف الوحدة الأوربية أو الأتحاد الأوربي أو الولايات المتحدة الأمريكية أو الوحد ة الأفريقية,الى غير ذلك من الأصطلاحات.

المقصود هنا من خطاب الوحدة او الخطاب الوحدوي , هو الخطاب الذي ينطلق من المشتركات بين المذاهب الاسلامية , والذي يجعل من تلك المشتركات هي الاساس والدافع في التفاهم والتقارب ونبذ الخلاف , ولايخفى بان خطاب الشهيد الصدر الوحدوي لن يتأتى من فراغ عقائدي او تشريعي , بل كان مستنداً على اسس شرعية , فهوكما وُصِفَ بأنّه" مفكر اسلامي واصولي بارع[٢]" - وهذا ماجعله ينطلق في خطاباته من اسسٌ شرعية رصينة مستندة على الكتاب والسنة الشريفة واحاديث المعصومين (ع) وسلوكهم العملي .

وقد عالج الشهيد الصدر مسألة الخلافات بين الامة بأسلوبٍ هادئ رصين , حتى في القضايا التي تثير الخلافات الأكثر حساسية في الأمة ,والتي بدأت تأريخياً بعد وفاة الرسول(ص), ولذلك نرى أول نتاجه الفكري وهو كتابه "**فدك في التأريخ**" , لم يكن يرغب في طبعه اول الامر حفاظاً على وحدة الامة[٣] , لما في ذلك الموضوع من

حساسية, بالرغم من أنَّ عمره آنذاك لم يتجاوز الـ(١٥) او الـ(٢٠) عاماً على اختلاف الروايات حين ألّف ذلك الكتاب .

وقد استمر الشهيد الصدر في نهجه الوحدوي بعد ذلك التاريخ , فكان يفُرد في مقالات خاصة في مجلة ((الاضواء)) التي كانت تصدر في النجف الاشرف في الستينيات من القرن الماضي , عن موضوع الوحدة الاسلامية وتوحيد الصف وقد جاء في مقالته بعنوان "وحدة الصف في الاسلام" ... "وحدة الصف من الامور الجوهرية الحساسة الاساسية , لحياة كل امة ونجاح كل حركة , ونيل كل شعب حقّه من العدل والحياة , وبدونه لايمكن ان ينال احد هدفاً او ان يرقى سُلّم النجاح في أي عمل اجتماعي عام . وقد اصبح هذا المفهوم في ايامنا الحاضرة , واضح المعالم , بديهي الصحة , بعد ان اثبتت التجارب في واقعنا الحياتي المعُاش , صحته وجدواه" ... [٤] ,ويقول ((رحمه الله)) في موضعٍ اخر "... يبدأ القران اولاً : بتوجيه تعاليمه الى المسلمين كافة بتوحيد الصف والاخوة في الدين , والتصافي على اساس من المنبع الالهي الفياض ,((واعتصموا بحبل الله)) (٥) أي بأمرالله وعهده اليكم , ولاتفرقوا , فهذا هو الاولى بكم والاجدر بان يوصلكم الى كمالكم وسعادتكم وتطبيق قوانين دينكم , فان كل هذه الثمرات الطيبة لايمكن ان تجنى عند التفرق والاختلاف ...)) [٦] , ومن هنا نرى حرصه في الحفاظ على الوحدة الاسلامية , مستنداً على الفهم العميق لآيات القران الكريم , وكذلك مايدعمه في هذا الاتجاه هو انتمائه لمدرسة اهل البيت (ع) , فقد رُوِيَ عن علي (ع) قوله ((لأسالِمَنَّ ماسلمت امور المسلمين[٦]))، فنهج عليّ (عليه السلام) هوسلامة الدين ووحدة الاسلام .

و في هذا الصدد من الممكن تشخيص مدارس فكرية اسلامية ثلاث حول فهمها ورؤيتها لموضوع الوحدة الأسلامية,تختلف عن بعضها وهي:

الاولى : -

هي مدرسة النص ((او بالتعبير الاصح)) مدرسة اهل البيت (ع) وهذه المدرسة تدعوا _في الغالب_الى وحدة الصف وجمع الكلمة لأن في ذلك قوة للاسلام والمسلمين[٧] , وقد دعم هذا التوجه وآمن بنتائجه عدد من علماء الامامية المعاصرين , بل انهم عارضوا حتى من يقول بعدم جدواه , اِذ يقول في هذا الصدد المرحوم اية الله محمد حسين فضل الله :((... حاول بعض الباحثين ان يطرح المسألة فيما يشبه الايحاء بأستحالة الوصول الى الوحدة على اساس الحوار ونحوه من

المبادرات الفكرية والسياسية التي تفتح اكثر من نافذة على المستقبل , وذلك من خلال الحديث عن التاريخ الاسلامي الدامي الذي سالت فيه الدماء في الخلاف الاسلامي على صعيد الحكم او الفقه , او غيرها , ولكننا نلاحظ على ذلك ان مثل هذه الخلافات بين المسلمين ليست بدعاً من المشاكل التي عاشت في تأريخ الشعوب الاخرى , بما فيها الشعوب الاوربيّة ...))[٨] .

اي انه ليس عدم الخلاف أو الأختلاف هي الحالة السائدة في المجتمعات الأنسانية بصورة عامة ,و في المجتمعات الدينية التي تستند في ثقافتها و قيمها على الدين – بصورة خاصة ,بل أن الخلاف هو الحالة السائدة , سواء في الديانة الأسلامية او الديانات الأخرى ,و ليس الأختلاف هو الخطر و انما الخطر في ذلك هو التطرف [٩]الذي يصل الى حد عدم قبول الأخر أو الغاءهِ أو إنهاء وجوده كأنسان له حق الحياة , وهذه اعلى الحالات التطرف و اخطرها .

وقد كان المثل الأعلى في هذه المدرسة هو الأمام علي (ع) , اذ جعل الدائرة الأنسانية هي المقياس في قبول الآخر و التعايش مع الآخر و هي الدائرة الاوسع التي تشتمِل على الدوائر الأصغر كدائرة الدين أو المذهب و هذا ما جاء في عهده لمالك الأشتر حين ولاه على مصر " يا مالك الناس صنفان اما أخٌ لك في الدين او نظيرٌ لك في الخلق ...."[١٠] أي اما ان يلتقي الأنسان مع الأنسان في الدائرة الأضيق , و من المنطقي عندها ان لا يختلف معه كثيراً في الدائرة الأوسع التي هي الدائرة الأنسانية ,أو لا يلتقي معه في دائرة العقيدة و الدين , و بالتالي لا يعني ذلك القطيعة و الرفض – كما يقول علي (ع) ,و انما يبقى المشترك الأهم هو الأنسانية لا سيما و ان العقيدة او الدين قابلة للأكتساب او التحول او التغيّر وربما تكون هي طارئة على الوجود الانساني في اعتقاده و تفكيره ,بينما الأنسانية هي جوهرالوجود وأصل انسانية الانسان و بها يتقوّم وبها يُوصف , و بالتالي فالأمام علي (ع) يعطي الترابط الثابت و الجوهري بين الأنسان و أخيه الأنسان , و لا يدع أي مجال للتطرف , نعم تبقى حالة الأستثناء انه في حالة التعدي على المعتقد و الأستخاف به و التجاوز عليه مع قصد الأساءة , فأن الأسراف في ذلك يُفقِد وجود الأنسان و حياته من معناها القِيَمي , و بالتالي يجب ان يُعاقب ذلك المعتدي أو يتوقف عن الأعتداء على الآخرين فيما يخص وجودهم او معتقدهم , كما يحدث الآن في وسائل الأعلام لبعض الدول الغربية في الأساءة الى شخص الرسول الاكرم (ص) .

وهذا هو معنى الدعوة الى الوحدة و التوحد أي الوحدة التي لا تلغي الخصوصية ,و لذلك يقول السيد محمد حسين فضل الله (... انا انطلق في هذا الأسلوب

الأنساني المنفتح على الأنسان كله من دون وجود أي عقدة ضد الأنسان الآخر الذي يختلف معي في الرأي, لأنني أعتقد انه اذا كان من حقّي ان اختلف مع الآخر ,فمن حق الآخر ان يختلف معي والحوار هوالذي يمكن ان يجعله يفهمني او أفهمه و يمكن ان يقودنا الى الوحدة اذا استطعنا ان نُقنِع بعضنا بعضاً وان نتفاهم او نتقارب بحيث يفهم كل واحد منا الآخر ....)[١١].

وقد تزايدت الدعوة الى الاعتدال و التسامح في مدرسة أهل البيت, و لم تكن تلك الدعوات متقطّعة أو تُمثّل حالة الأستثناء , بل تبنّاها و دعا اليها كثيرمن علماء الدين , فالأمام الخميني أعتبر ان الوحدة كانت ما تزال العلة (المُحدِثة) و(المُبقِية) للنظام الأسلامي , وأن الأسلام و الوحدة هما الضمانة الأكيدة لاستمرار المسلمين فيقول في هذا الصدد " ..... اذا أراد المسلمون استعادة عزّتهم و عظمتهم في صدر الأسلام فعليهم التمسك بالأسلام و بوحدة الكلمة"[١٢], والسيد محمد باقر الصدر قد نشأ في تلك المدرسة و تلقى علومه فيها ,و لذلك ركّزَ في خطابه الوحدوي على أهمية الوحدة و التوحُّد و احترام الآخر , بل أنه أرسى في خطابه الوحدوي أُسساً متينة ,متجاوزاً أو متغاضياً عن ترسبات الماضي التي خلّفتها عقوداً طويلة من الزمن, من خلال دعواته و نداءاته الواضحة لكل المسلمين للبحث عن المشتركات و تفعيلها و جعلها هي الأساس في التعامل مع الاخر و فهم الآخر .

وللأنصاف نذكر في هذا الصدد أن هناك دعوات كثيرة للوحدة أو التقريب من قبل شخصيات علمية دينية,ولكن هناك عدم التفكير الجدي من قبل بعض الدعاة الى التقريب او الوحدة في توفير مستلزمات أو متطلبات دعوات الوحدة .

الثانية :-

وهي مايمكن تسميتها بـ(مدرسة الخلافة) التي تتمثل اليوم ب"الازهر الشريف" ,والمدارس الدينية التي تتشابه معها فكرياً أو التابعة لها,وقد كانت ايضا قد تقدمّت بخطوات متميزة في هذا المجال,ودعت الى تحمل المسؤولية الدينية ونبذ الخلاف والفرقة , والانطلاق من المشتركات الاسلامية , وكان لها الاثر البالغ في التقريب بين المسلمين[١٣] , و قد صدرت فتاوى في هذا المجال كان أهمها القبول بالتعددية المذهبية والقول بأنها لاتضر بالأعتقاد أوالتوحيد, وتجاوز مفهوم الألغاء أو عدم الاعتراف بالآخر, و هي خطوة جيدة , أذ ان الأساس الصحيح للوحدة هي التعددية المتوائمة و المتفاهمة و المتحاورة ,لا الغاء الخصوصية الجزئية بالقسر و

الأكراه ,او عدم تقبل الآخر أو قبوله ,وبالرغم من محاولات بعض الجهات في داخل المدرسة الأزهرية أومن خارجها من الجنوح نحو التطرف ,ولاسيما بعد تدخّل دولاً معينة راعية للتطرف الديني ,ولأسباب سياسية لامجال هنا للدخول في تفصيلاتها,إلاّ أن الصفة البارزة لمدرسة الأزهر هي سمة الأعتدال والدعوة الى الحوار,ولعل ذلك يعود سببه الى العمق الثقافي التأريخي لهذا البلد وأعتماده على الفكر الديني المعتدل من خلال تبني المذاهب الفقهية الأكثر أعتدالاً.

الثالثة :-

وهي المدرسة التي التزمت خط التحجر والانغلاق وتكفير الاخر , والمتمثلة "بالمدرسة الوهابية"[١٤] او "الخط الوهابي" المستند على افكار بن تيمية الحرّاني[١٥] , واصحاب هذا الاتجاه لايركنون على الاغلب الى لغة العقل والحوار وقبول الاخر , وانّما الى التكفير واباحة الدم , والى غير ذلك , حتى انتج ذلك الفكر حركات متطرفة – كتنظيم القاعدة وغيرها – شوّهت كثيراً من صورة الاسلام لدى جيل المسلمين الناشئ فضلاً عن العالم الغربي , حتى بات النظر الى الاسلام وكأنه متلازم مع الارهاب أو هو مصدره , إذ أنّ أتباع هذا الخط أوهذه المدرسة لايقبلون التعددية في إطار الوحدة ,أي لايقبلون الخصوصية الجزئية في إطار الوحدة الكلية ,وإنّما ينظرون الى الوحدة بأنها هي التي يرونها ويتصورونها فقط , وبالتالي لامجال للآخرين للعيش إلاّ الذوبان في هذه الوحدة الذهنية والأنسلاخ من كل خصوصية ,وكل شيء عدا ما يطرحونه و ما يتصورونه أو يُصوّرونه هو شركٌ او كفرٌ لا يستحق بنظرهم من يعتقد به العيش و الحياة فقط , وإنما يجب انهاءهُ كموجود, و هذه هي فلسفة فتاوى تكفير المسلمين , أي عدم القبول بأي آخر مهما كانت المشتركات مع ذلك الفكر , ما دامت هناك خصوصيات , ولا يقبل الفكر التفكيري الّا بالذوبان الكامل في المنهج الذي يرسمه و يحدده , فهو يريد الوحدة الواحدة الذائبة و المنسلخة عن خصوصيتها أو جزئيتها , لا الوحدة العقلانية التي تقبل التعددية أو الخصوصية الجزئية ..

المبحث الثاني:الابعاد السياسية في الخطاب الوحدوي عند الشهيد الصدر

مثّل الخطاب الوحدوي في بعده السياسي عند الشهيد الصدر علامة بارزة ومهمة , لاسيما والشهيد الصدر كان مدركاً تماماً للتنوع المذهبي الذي تعيشه المنطقة الاسلامية بصورة عامة ,والعراق بصورة خاصة,وقد حذر من السلوك الذي أنتهجته السلطة في حينها من خلال توظيف الورقة الطائفية في العراق من أجل تحقيق أهدافها السياسية الغير مشروعة , ولذلك أكد بأن هناك أهداف سياسية تسعى لتحقيقها السلطة الحاكمة في العراق وقتئذ – أي سلطة البعث المُبادة , التي حاولت بشكل أو بآخر التأجيج الطائفي ,من أجل تحقيق الدعم للنظام السياسي الغير مستند على الشرعية ببعدها القانوني الشعبي أو ببعدها الشرعي الديني,والتي سعت جاهدة الى محاصرة ومكافحة الفكر الاسلامي الصاعد سياسياً والمقبول أجتماعياً, ولاسيما في العراق وايران , بعد فترة تراجع او خمول او ركود لذلك الفكر في العهود السابقة[١٦] .

لم يكن معنى الوحدة او التوحّد عند الشهيد الصدر هي التراجع او المساومة على القيم والمبادئ الاسلامية السامية , بل على العكس من ذلك نرى ان

الشهيد الصدر بقدر ماكان يحمل هم الوحدة والتوحد بين المسلمين , كان من أبرز المتصدين لاولئك الذين يحاولون استهداف القيم الاسلامية وثوابت الدين , سواءً من الداخل او من الخارج , أي ان الخطاب الوحدوي عند الشهيد الصدر كان محكوماً بالبعد العقائدي والفهم العميق للدين الاسلامي , وبالتالي فقد واجه الفكر بالفكر مع كل اولئك الذين حاولوا ابعاد الدين عن الواقع الاجتماعي والثقافي والسياسي للأمة الاسلامية والذي كان بأعتقادهم يشكل خطراً على مصالحهم , سواءً تلك الافكار المتأثرة بالشرق او بالغرب[١٧] ,أو أولئك الذين حاولو تحقيق مكاسب سياسية تحت شعارات دينية غير واقعية, ولذلك فالخطاب الوحدوي السياسي عند الشهيد الصدر لم يكن من اجل تحقيق مكاسب مادية آنيّة – كما هو الحال في الدعوات او الحركات التي لاتستند على القيم الدينية والمعنوية , بل ان الخطاب التوحيدي بحد ذاته – بحسب ما ارى – لم يكن هدفاً الاّ بقدر مايحقق تطبيق قيم الدين الاسلامي التي آمن بها ودافع عنها الصدر والتي لا تتقاطع مع القيم الأنسانية, ولذا فإن خطاب الوحدة – في بعده السياسي – عند الشهيد الصدر هو تفريعٌ للخطاب العقائدي الوحدوي , أي ان الوحدة السياسية مرهونة – على الاقل – بالوحدة العقائدية للامة , ولايعني ذلك فرض العقائد الاسلامية على غير المسلمين , وانما احترام الغير وفقاً لما جاءت به الشريعة الاسلامية من تسامح , كما جاء في قوله تعالى "لا اكراه في الدين"[١٨] , وكما بين ذلك جملة من المفسرين[١٩] , وتأكيدهم على عدم نسخ هذه الآية ,كما أشار الى ذلك صاحب تفسير الامثل" ناصر مكارم الشيرازي" وصاحب تفسير الميزان "محمد حسين الطباطبائي" وكذلك ماجاء في تفسير "من وحي القران" للسيد محمد حسين فضل اللّه , وكما اكد ذلك السيد الصدر بقوله ((...الدين ليس كلمات جامدة ترددها الشفاه , ولاطقوساً تقليدية تؤديها العضلات , وانما هو عقيدة وكيان ومنهج تفكير...)[٢٠] ,بمعنى عدم الجمود أو الأنغلاق أوالفهم السطحي للدين الذي يحوّل الأنسان الى مجرد آلة,وإنّما الدين الحقيقي هو الّذي يُفعّل التفكير لدى الأنسان ويُشعره بدوره في هذا الوجود.

و لذلك عندما نتناول الخطاب الوحدوي في بعده السياسي عند السيد الصدر ,فاننا لانستطيع قراءته الا من خلال بعده العقائدي , ومن خلال تلك القراءة نرى ثلاث اتجاهات في الخطاب السياسي للسيد الصدر , قد تبدو للنظرة السريعة العابرة انها خطابات تتعارض مع الدعوة الوحدوية للشهيد الصدر , ولكن القراءة المتأنية تشير الى غير ذلك أذ تؤكد بانها قراءات متكاملة ومتعاضدة من اجل الوحدة الاسلامية .

ومن الممكن الاشارة الى الاتجاهات الثلاث كما يلي :

الاتجاه الاول :-

وهو الخطاب السياسي الذي طالما وجّهَهُ السيد الصدر للآخر السياسي غير الاسلامي , أي ما يمكن تسميته بالمهدد الخارجي للوحدة الأسلامية, وهذا ما أكّده وحذّر منه الصدر, فهو يقول: ((... ان الشعور النفسي الخاص الذي تعيشه الامة في العالم الاسلامي تجاه الاستعمار الذي يتّسم بالشك والاتهام والخوف نتيجة لتأريخ مرير طويل من الاستغلال والصراع , فإن هذا الشعور خلق نوعاً من الانكماش لدى الامة ...)) (٢١) .

ويقول في موضع اخر : (...ان الانسان الأوربي تحالف وتمحور من اجل ان يمارس صراعه واستغلاله لهذه الشعوب الفقيرة , وقد انعكس هذا التناقض الاكبر , انعكس اجتماعياً من خلال صيغ الاستعمار المختلفة التي زخرت بها الساحة التاريخية منذ خرج الانسان الاوربي والامريكي من دياره ليفتش عن كنوز الارض في مختلف ارجاء العالم , ولينهب الاموال بلا حساب من مختلف البلاد والشعوب الفقيرة ...) (٢٢).

ويؤكد أيضاً في موضع اخر ((... ان الامة في العالم الاسلامي عانت من الاستعمار الواناً من الغدر والمكر والالتفات منذ وطأ الرجل الابيض الغربي ارضا الطاهرة باسلحته وافكاره ومناهجه ...)) (٢٣) ,فهو يرى بأن المنافع أو المصالح للقوى الغربية تدفعهم الى تفتيت وحدة الأمة من أجل أضعافها ومن ثم السيطرة عليها.

ونرى هنا تشابهاً في الخطاب السياسي مع كثير من الاسلاميين في هذا المجال فيقول المرحوم سيد قطب ((... وكذلك اصبح نتاج الفكر الاوربي بجملته – شأنه شأن إنتاج الفكر الجاهلي في جميع الازمان في جميع البقاع ... شيئاً اخر , ذا طبيعة مختلفة من اساسها عن مقومات التصور الاسلامي . ومعادية في الوقت ذاته عداءً أصيلاً للتصور الاسلامي ...)) (٢٤) .

وفي نفس الاتجاه نرى ان السيد الخميني يقول "... وقد برز ذلك الدور في النشاط الاستعماري الذي يعود تأريخه الى ماقبل ثلاثة قرون . وقد وجد المستعمرون في العالم الاسلامي ضالتهم المنشودة , وبغية الوصول الى مطامعهم الاستعمارية سعوا الى ايجاد ظروف ملائمة تنتهي بالاسلام الى العدم ..." (٢٥) وفي نفس الصدد يؤكّد السيد محمد حسين فضل الله ((... ولذلك اذا حاولنا استعراض التاريخ الذي عشناه مع الاستكبار العالمي , لرأيناه قد حرّك كل الية

الحروب واوجد لها السياسات المناسبة وأطلق كلمة : ((فرق تسد)) التي حاصر فيها كلّ واقعنا , ودخل من خلالها فيما بيننا ليمنع وحدتنا وثقافتنا , الامر الذي جعلنا نعيش حالة من التخلّف ...)) [٢٦] .

ولذا فالخطاب السياسي في هذا الاتجاه كان موحداً – مع أغلب المفكرين الاسلاميين الذين وجهّوا النقد للسياسات التي أنتهجها الغرب السياسي تجاه الاسلام والمسلمين , أي انه خطاب ناقد ورافض ومقاوم ومعارض لأولئك الذين يستهدفون الوحدة الاسلامية وعقائدها ونهوضها . وبالتالي فإن القبول أو التوافق مع هذا النهج الغربي يعني القبول بتفريق الامة الاسلامية , ورفضه يعني الدعوة الى نهوض الامة الاسلامية ورصّ صفوفها .

الاتجاه الثاني : –

وهو الخطاب السياسي الذي وجهه السيد الصدر لأولئك الحكّام الذين قد يحكمون المسلمين بأسم الاسلام – أو لأنهم ينتمون للأسلام بالهوية , ولكن في الحقيقة هم أداة بيد الخط الاول او الاتجاه الاول , وقد كان لعدد من علماء المسلمين الدور البارز في مواجهتهم هذا المجال , , و ماحصل في نهاية القرن التاسع عشر من نشاطات لجمال الدين الأفغاني والكواكبي وغيرهم , ثم بدايات القرن العشرين كثورة التنباك التي دعا اليها الميرزا الشيرازي عام ١٨٩١[٢٧] والمشروطة التي دعا اليها النائيني عام ١٩٠٨[٢٨] كانت الدليل الاوضح على ذلك , وقد واصل الكثير من المصلحين في القرن العشرين هذا الخط في معارضة ومقاومة ومقارعة الحكومات الأستبدادية .

والنموذج الأوضح في هذا المجال ماقام به الامام الخميني في مواجهته مع الشاه , اذ يقول في احدى بياناته ((... لم يعد لايران من عيد , واصبحت اعيادنا ماتم عزاء , ... باعونا , وباعوا استقلال بلادنا ...)) [٢٩] , ولايمكن استطراد كل المواقف فانها كثيرة , ولكن نركّز على ماطرحه السيد الصدر في هذا المجال , فهو في احد بياناته عندما يشخص الخطر الأكبر على الوحدة الأسلامية,أذ يقول ((... ياجماهير العراق المسلمة ... انك تتعرض اليوم لمحنة هائلة على يد السفاكين والجزّارين الذين هالهم غضب الشعب وتململ الجماهير بعد ان قيدوها بسلاسل من الحديد ومن الرعب والارهاب , ... الى ان يقول ((... فعلى كل مسلم في العراق وعلى كل عراقي في خارج العراق ان يعمل مابوسعه – ولو كلّفه ذلك حياته – من اجل ادامة الجهاد والنضال

لأزالة هذا الكابوس عن صدر العراق الحبيب وتحريره من العصابة اللاإنسانية وتوفير حكم صالح فذ شريف يقوم على اساس الاسلام...)) (٣٠).

ونرى في هذا الاتجاه ان السيد الصدر أشار الى خطر أولئك الذين يسعون الى تمزيق وحدة الامة وتفتيتها , وهذا الذي اسماه السيد الصدر بـ((الظاهرة الفرعونية)) مستشهداً بقوله تعالى ((ان فرعون علا في الارض وجعل اهلها شيعاً...)) (٣١) , فهو يقول ((... ومن اهم واخطر التغيرات التي تظهر في الامة مع ازدياد الظلم والضغط وكبت الحريات وسلب الحقوق في الحكم والمال والفكر والكرامة , هو ظهور اتجاهات نفسية وذهنية متنافرة مشتتة متناحرة تستوعب المجتمع كله مما يفقده وحدته وقوته وإرادته , فلا يعود قادر على رد المستكبرين وصدهم ومواجهتهم , وهذه الاتجاهات النفسية والذهنية تظهر من ذاتها بسبب الظلم والقهر والاستهتار بالحقوق ويتبناها المستكبرون ويرعوها ليعمقوا الفرقة والتباعد والتصارع بين فئات المجتمع المختلفة بعد ظهور بوادرها وعلاماتها ...)) (٣٢)
.

ولذلك نرى ان الخطاب الوحدوي للشهيد الصدر في الاتجاه الثاني هو محاولة الدفاع عن الامة من خطر اولئك الذين يستهدفون وحدتها ومواجهتهم وكشف زيف ادعائهم,أي مايمكن تسميته بالمهدد الداخلي للوحدة الأسلامية .

الاتجاه الثالث : –

هو الاهم في حركة المصلحين – ومن ابرزهم السيد الصدر– وهو الخطاب السياسي الوحدوي الذي يدعوا الامة الى التوحد وعدم التنافر , وما الخطابات في الاتجاه الاول والاتجاه الثاني – أي الموجهة لأولئك الغير مسلمين والاخرين المتسلطين من المسلمين – الاّ من أجل تحقيق وانجاز هدف الاتجاه الثالث في الخطاب الوحدوي وهو حفظ وحدة الامة وتماسكها ووحدتها , أي بمعنى اخر ان الخطابين الاولين كانا لردع وصدّ أولئك الذين يستهدفون وحدة الصف الاسلامي والوئام بين المسلمين , في حين أن الخطاب في الاتجاه الثالث هو توعية المسلمين انفسهم وتحصينهم من مخاطر أولئك , ونرى ذلك واضحاً وجلياً في خطابات ونداءات الشهيد الصدر , فيقول ((... ياشعبي العراقي العزيز اني اخاطبك في هذه اللحظة العصيبة من محنتك وحياتك , بكل فئاتك وطوائفك بعربك واكرادك , بسنتك وشيعتك , لأن المحنه لاتخص مذهباً دون اخر , ولاقومية دون اخرى ...

واني منذ عرفت وجودي ومسؤوليتي في هذه الامة بذلت هذا الوجود من اجل الشيعي والسنيّ على السواء , ومن اجل العربي والكردي على السواء .

... ان الطاغوت وأولياءه يحاولون ان يوحوا الى ابنائنا البررة من السنة ان المسألة مسألة شيعة وسنة ليفصلوا السنة عن معركتهم الحقيقية ضد العدّو المشترك ...)) [٣٣] , أي ان الشهيد الصدر كان في خطابه الوحدوي قد انطلق من نقطتين مهمتين :

الاولى : –

ان خطابه الوحدوي السياسي يعد تفريعاً للخطاب العقائدي الوحدوي , فالدعوة لوحدة الامة سياسياً تستند على وحدتها عقائديا , مع ملاحظة ومراقبة النص القراني الذي يؤكد حرية المعتقد ((لا إكراه في الدين)) السالف الذكر , الذي يراعي التعددية العقائدية التي لاتستهدف الوحدة العقائدية للأمة الاسلامية .

الثانية : –

وهي ان خطاب الوحدة السياسية عند الشهيد الصدر يستدعي معالجة الاسباب التي تعيق الوحدة , وهذه الاسباب منها لايقبل المهادنة او غض الطرف , والمتمثلة بالعامل الخارجي او ماتسمى عند بعض الاسلاميين بقوى الاستكبار , وكذلك ادواتهم الداخلية التي تسعى الى تفتيت وحدة الامة من اجل السيطرة عليها والهيمنة على مقدراتها والسبب الاخر هو مخاطبة الامة بروح التسامح والتناصح والتحذير من خطر الفرقة والتشتت , والعودة الى الوعي .

وأخيراً فإن الخطاب السياسي العقائدي الوحدوي عند الشهيد الصدر لايعني التسالم والتصالح مع الجميع والتوحد معهم , بل التسالم والتصالح مع الامة العقائدية والدعوة الى وحدتها ورصّ صفوفها , وكذلك مواجهة من سيستهدف تلك الوحدة مهما كان إنتمائه سواءً من داخل تلك الامة او من خارجها , فهو خطابٌ يدعو الى الوحدة ويواجه في الوقت ذاته مهددات الوحدة .

الخاتمة والأستنتاجات: –

من خلال ماتمّ التطرق اليه حول موضوع الخطاب الوحدوي في فكر الشهيد الصدر, يمكن القول بأن موضوع الوحدة الأسلامية أوالتوحّد كان قد شغل حيزاً في فكر ووجدان السيد الصدر وحاول جاهداً من خلال التأمل والمراجعة لكل الموروث الحضاري الأسلامي في البحث عن المشتركات ,والتي هي كثيرة الى حدٍ أنها كافية لأنجاح أو أنجاز مشروع الوحدة ,أوالتلاقي بين فئات الأمة المتعددة على مائدة

مشتركة, والتي من أعظمها وأهمها هي القرآن والقبلة والنبّي الواحد,والتي تُعد الأصل الذي تتبعه المواضيع الأخرى .

ولذلك يمكن التوصل من خلال ماسبق الى جملة من الأستنتاجات ,أهمها:-

١ - أن مفهوم الوحدة في فكر السيد الصدر ليس مفهوماً آنياً مصلحياً عابراً من أجل تحقيق مكاسب مؤقتة مادية ,بل هو مفهوم مستند على أسس عقائدية تعطيه من القوة والعمق ,الى درجة تجعله يصمد في وجه التحديات الداخلية والخارجية الى درجة كبيرة.

٢- إنّ الخطاب الوحدوي في فكر وسلوك السيد الصدر لايعني الأزدواجية أو التوحّد

بدون مقاييس أو ضوابط ,أي بمعنى آخر لايعني قبول الوحدة مع الكل ,بل هناك رفض ومواجهة,ولكن مع من يُهدد وحدة الأمة ويستهدفها,وقد شخص السيد الصدر ذلك المهدد بطرفين هما الأستكبارالخارجي(الأستعمار),والأستكبار والأستبداد الداخلي (الأنظمة الدكتاتورية),وكلاهما يعيش ويقتات على فرقة الأمة وتشتيتها ,لأن في وحدة الأمة ووعيها خطراً على كليهما.

٣- خطاب الوحدة عند السيد الصدر لايعني نفي الخصوصية أو إلغائها ,كما تذهب بعض المدارس الفكرية المتطرفة,وإنّما إحترام تلك الخصوصية والتوحد الكلي في إطار التعددية الجزئية ,بعيداً عن الإلغاء.

٤- على الرغم من أن الأساس في الخطاب الوحدوي هو العقيدة,ولكن ذلك لايعني نفي الآخر أو تذويبه الذي لايشترك في العقيدة,بل إن العقيدة (الدين)نفسها تفرض إحترام الآخر من خلال المفهوم القرآني (لاإكره في الدين),والمفهوم العلوي الذي يؤكد ويطبق تعاليم القرآن والنبوة(الناس صنفان أما.....الى آخر وصيته لمالك الأشتر),والسيد الصدر هو إمتداد لتلك المدرسة المعتدلة,وهو الذي يحاول دائماً الدفاع عن مفاهيمها وقيمها.

المصادر :ـ

*- للتفصيل أكثر ينظر:-جورج طرابيشي,هرطقات عن العلمانية كأشكالية أسلامية-أسلامية,(بيروت:دار الساقي,٢٠٠٨),ج٢.

١- كمال الحيدري , مرتكزات اساسية في الفكر الاصولي للسيد الشهيد الصدر , مجلة قضايا اسلامية العدد٣ , قم ١٩٩٦ , ص٢١٣ .

٢- للتفصيل اكثر ينظر : احمد عبدالله ابوزيد العاملي , محمد باقر الصدر السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق ,(بيروت : مؤسسة العارف للمطبوعات , ٢٠٠٧) , ج١, ص١٥٨- ص١٥٩ .
٣- عبد السادة الحداد , مقالات الشهيد الصدر في الصحافة النجفية , (قم : دار المجتبى , ٢٠٠٦) , ص١١٣ .
٤- ال عمران , اية ١٠٣ .
٥- عبد السادة الحداد , مصدر سبق ذكره ,ص١٢١ .
٦- نهج البلاغة .تحقيق صبحي الصالح.
٧- للتفضيل اكثر حول علماء الامامية الذين دعوا الى الوحدة الاسلامية ونبذ الخلافات ينظر : عبد الكريم الشيرازي , الوحدة الاسلامية او التقريب بين المذاهب السبعة , ط٢, (بيروت : مؤسسة الاعلمي للمطبوعات, ١٩٩٢) .
٨- محمد حسين فضل الله , الحركة الاسلامية مالها وماعليها , (بيروت, دار الملاك , ٢٠٠٤م) , ص٥٩ .
٩- **التطرف:**هو الخلط بين المطلق والنسبي أو هو"تحويل الأيمان الديني من موقف شخصي الى موقف أجتماعي ومن عقيدة سامية الى آيديولوجية تحكم مجالات الحياة النسبية المتغيرة".ينظر:إسماعيل حسني,علمانية الأسلام والتطرف الديني,(القاهرة:دار مصرالمحروسة,٢٠٠٩),ص٣٨٤.
١٠-**نهج**البلاغة, تعليق: صبحي الصالح, ط٣, (قم: إنتشارات نور الهدى, ١٤٢٥ه.ق), ص٤٢٧.
١١-**محمد حسين فضل الله**,العقلانية والحوار من أجل التغيير(مجموعة مؤلفين),(بيروت:مركز الحضارة لتنمية الفكر الأسلامي,٢٠١٠),ص٢٥٠
١٢-**مجموعة باحثين**,الوحدة وتحديات التنوع (موسوعة الفكر السياسي عند الأمام الخميني),(موسوعة الحضارة لتنمية الفكر الأسلامي,٢٠١٠),**ص٢٥٣**
١٣-ينظر : عبد الحسين شرف الدين , المراجعات , (بيروت , دار الكتاب العربي , ٢٠٠٤م) .
١٤-ينظر : محسن الامين العاملي , كشف الارتياب في اتباع محمد بن عبد الوهاب , ط٢ , (قم , مؤسسة انصاريان للطباعة , د.ت) .
١٥-ينظر : صائب عبد الحميد , ابن تيميه حياته , عقائده , (قم : مركز الغدير للدراسات الاسلامية , ١٩٩٤) .
١٦-احمد طحّان , الحركات الاسلامية بين الفقه والجهاد , (بيروت : دار المعرفة , ٢٠٠٧) , ص٤١١ .
١٧-حسين رحال , اشكاليات التجديد دراسة في موضوع علم اجتماع المعرفة , (بيروت : دار الهادي , ٢٠٠٤) , ص٥٧ .
١٨-حسين بركة الشامي , المرجعية الشيعية من الذات الى المؤسسة , ط٣, (بغداد : دارالسلام , ٢٠٠٦) , ص١٧٣ .
١٩-البقرة , اية ٢٥٦ .
٢٠-للتفصيل حول تفسير الاية ينظر : ناصر مكارم الشيرازي: الامثل في تفسير كتاب الله المنزل , ( ) , ج٢ , ص٢٦١ . كذلك ينظر : محمد حسين الطباطبائي , الميزان في تفسير القران , ج٢ .
٢١-محمد باقر الصدر , المدرسة القرانية , ط٤, (قم : مركز الابحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر , ١٤٢٨ هـ.ق) , ص٣٦٤ .
٢٢-محمد باقر الصدر , اقتصادنا , (قم : مركز الابحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر , ١٤٢٤ هـ.ق) , ص٢٢ .
٢٣-محمد باقر الصدر , المدرسة القرانية , مصدر سبق ذكره , ص١٦٨ .
٢٤-محمد باقر الصدر , الاسلام يقود الحياة , (سوريا : دار التعارف للمطبوعات , ١٩٩٠) , ص١٧٩ .
٢٥-سيد قطب , معالم في الطريق (_____) , ص١١٧ .
٢٦-الامام الخميني , الحكومة الاسلامية (ولاية الفقيه) , ط٨, (ايران : مؤسسة تنظيم تراث الامام الخميني – الشؤون الدولية , ٢٠٠٥) , ص٢٥ .
٢٧-محمد حسين فضل الله , ارادة القوة , (بيروت : دار الملاك , ٢٠٠٠) , ص٧٦ .

٢٨-للتفصيل ينظر : خضير مظلوم البديري , فصول من تاريخ ايران الحديث والمعاصر , ج١, (النجف : دار الضياء , ٢٠٠٨) .

٢٩-للتفضيل ينظر : ماجد الغرباوي , محمد حسين النائيني , منظر الحركة الدستورية ,(بيروت : العارف للمطبوعات, ٢٠١٢) .
٣٠- غلام رضا نجاتي , التاريخ الايراني المعاصر , ترجمة : عبد الرحيم الحمراني , (قم : مؤسسة دار الكتاب الاسلامي , ٢٠٠٨) , ص٢٩١ .
٣١-احمد عبدالله ابو زيد العاملي , مصدر سبق ذكره, ج٤ , ص٢٠١ .
٣٢-القران الكريم , القصص , اية/٤ .
٣٣-محمد باقر الصدر , المجتمع الفرعوني , اعداد: محمد علي امين , (النجف : مكتبة دار المجتبى , ١٤٢٤هـ) , ص٧٠ .
٣٤-احمد عبدالله ابو زيد العاملي , مصدر سبق ذكره , ج٤, ص٢٠٦.